أري دي لوكا

باسم الأم



ترجمة
نزار أغري

منشورات الجمل

رواية

اري دي لوكا

باسم الأم

ترجمة

نزار اغري

منشورات الجمل

أري دي لوكا: باسم الأم

أري دي لوكا: باسم الأم، ترجمة: نزار أغري
الطبعة الأولى ٢٠١٦

Erri De Luca: In nome della madre

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

تآلف، يا «إبني»، مع الصحراء

جوزيف برودوسكي

مقدمة

ترد أخبار مريم (ماريا) بالتفصيل في إنجيلي متّى ولوقا: بزوغ الميلاد من الجسد الأنثوي. اللغز الطبيعي الأكبر.

الإنجاز الذكوري، في الأساس، لا وزن له. يتم في لحظة من الزمن. في هذه الحكاية يهيمن الغياب من دون أن يشعر به المرء.

في الإنجيلين ليس من ذكْر لوجود قابلات أو غيرهن في الإصطبل أثناء الولادة. ماهو غير مذكور يشكل جزءاً من الرواية. لم تكن ثمة قابلات. ولدت لوحدها. تلك هي المعجزة الكبرى في ليلة الميلاد. كفاءة الصبيّة الأم في عزلتها.

فضلاً عن نجمة الشهب والسحرة الثلاثة على الجِمال. ثمة معرفة مريم (ماريا) بأمر الولادة.

ها هنا تتوالى التفاصيل من أجل مقاربة أكثر وضوحاً.

باسم الأب تفتتح شارة الصليب. باسم الأم تفتتح الحياة.

استهلال

ريح الشمال في شهر آذار

ليس غريباً في الطبيعة أن يجري التلقيح عبر الريح، شأن الأزهار.

الزهرة هي اسم فرج العذراوات. من يفضّ البكارة يقطف الزهرة.

حملت مريم (ماريا) من ملاك وهي تنتظر، على الملأ، وفي وضح النهار.

داعب الريح جنبها.

فك نطاقها وقذف النطاف في رحمها.

وجاءتها الرعشة، دون أن ترفع طرف ثوبها.

كانت هناك ثلاثة أشهر إلى الموسم الأول للقمح.

ريح الشمال في شهر آذارعانقها وجعلها أمّاً في شهر كانون الأول،

إنه شهر كيسليف(*) القمري

من أجلك يا مريم (ماريا)، أيتها اليهودية من الجليل.

(*) كيسليف: شهر قمري عبري يقع بين تشرين الثاني وكانون الأول.

المقطع الأول

أخبرتُه في اليوم ذاته. لم يكن في مقدوري أن أحتفظ بالسر ليوم واحد.

لم يكن ممكناً أن أمضي النهار كله في الإنشغال بالتخلي عنك. كنا مخطوبين وفي شرعنا كنا نعتبر متزوجين ولو لم يضمنا سقف واحد.

وها أنا حامل.

تناهى إليّ صوت الرسول مع هبّة ريح. نهضتُ كي أغلق النوافذ، ولم أكد أستوي على رجليّ حتى لفّتني الريح وغمرني غبار إلهي فأغلقت عينيّ.

تهبُّ ريح آذار من الشمال. من جبال لبنان والجولان. تستمرّ وقتاً.

يخبط على الأبواب وينفخ في الحصائر عند المداخل فتبدو كما لو أنها حبلى.

في كنف هذه الريح وجدت نفسي أمام وجه وصوت رجل.

في حكاياتنا المقدسة تظهر الملائكة في أجسام بشرية.

ليس ثمة ما يميّزهم. ولايتعرف عليهم المرء إلا حين يختفون.

يتركون وراءهم هدايا وغياب.

ولكن إبراهيم تعرف إليهم في بساتين ممري وحسبهم مسافرين.

هم ينثرون الكلمات نطافاً ويحولون جسد المرأة حفنة تراب.

كنت واقفة ورأيته في الضوء المتسرب من النافذة. أخفضت عينيّ اللتين كنت فتحتهما تواً.

أنا زوجة موعودة ولا يحق لي أن أنظر إلى وجوه الرجال. أولى كلماته وسط ذعري: شالوم مريم.

قبل أن أقدر على الصراخ، أن أطلب العون، للرد على هذا الغريب الذي اقتحم غرفتي. جمدتني هذه الكلمات التي كان يوسف خاطبني بها يوم خطوبتنا. يومئذ رددت عليه: شالوم ليخا. ولكن اليوم لا.

اليوم لم أستطع أن ألفظ حرفاً واحداً. بقيتُ صامتة. هذا كان كل ما أمكنني أن أستقبله به.

أعلن عن قدوم الوليد. عن أنه منذور لأشياء عظيمة، للخلاص.

غير أني لم أكترث كثيراً لتلك الوعود.

داخل جسدي، في رحمي، أخليت فسحة. في جوف البطن استقرت فيها حفنة من الطين الطازج.

أخذ يوسفي الجميل يقبل أصابعه وراح يثبت ذراعيه حول جسده ويحاول أن يثبت في مكانه، متكوراً حول نفسه كما لو كان يعاني من وجع في بطنه؟

كان الخبر بالنسبة له مثل هبة ريح تقلع سقف البيت. كان يحاول التمسك بجسمه، مخطوف الوجه، ذراعاه تسعيان في الإفلات منه.

كان يشد البطن الضامر والمشدود. كان يتحاشى الإصطدام بي ويحاول ألا يعكّر صفو هدوئي النقيض لهياجه من دون أن يظهر شيئاً من الإضطراب.

كنت واقفة، مستقيمة الظهر. خفة طارئة تدفعني لأن أكون أكثر جلَداً ورشاقة، ولاسيما في منتصف الجسم أسفل طية البطن. كانت تلك النقطة تعاني من الألم ومن ثقل العضلات المتوترة كما هو الحال عند رياضيّ مرهق. أما أنا فقد كنت أشعر بدفقات قوية من الأسفل نحو الأعلى تدفعني إلى القفز.

كانت خصلات شعره المرتجفة تتراقص على جبينه الناصع وتهتز أمام عينيه فأخذ يرتبها بحركات سريعة من يده. كان جميلاً حتى في اضطرابه.

ـ ماذا قال أيضاً؟ ماذا قال؟ كان يوسف يكرر السؤال آخذاً رأسه بين يديه وعيناه على الأرض. حاولي أن تتذكري يامريم. الأمر مهم للغاية. ماذا كان يريد أن يقول؟

يعطي الرجال أهمية كبيرة للكلمات. بالنسبة لهم هذا كل ما يهم، كل ما له قيمة.

كان يوسف يلحّ على الكلمات كي يحفظها وينقلها للآخرين. فكرت فوراً في تبعات الأمر من جهة الشرع. لقد حطمت البشارة إتفاقنا. فقد حبلت من ملاك قبل الزواج، في فترة الخطوبة. لهذا كان يستوضح المزيد لكي ينقل الكلمات إلى الناس ويدافع عن نفسه في المدينة.

ـ ماذا قال أيضاً يا مريم؟ أرجوك. حاولي أن تتذكري. لقد حدث ذلك منذ بعض الوقت لا أكثر.

ـ كنت خارج طوري، يا يوسف. إزاء الدهشة التي أذهلتني والغبار الناعم الذي لفني، دون أن يترك أي أثر على الأرض. غمرني أنا وحدي. لازالت بقاياه على جسدي، أترى؟

ـ إنسي الغبار الآن. ستنظفين جسمك في ما بعد. الآن ساعديني. ماذا سأقول للحكماء؟

عندما حدث ذلك أخفضت نظري وكان ثوبي يصل إلى قدمي. بعد ذلك هدأ جسمي المتوتر وأضحى مثل قمح مغطى بالثلج. وبينما هو يتحدث كنت أتحول إلى أم. يحتاج الرجال إلى الكلمات كي يتأكدوا. لكن كلمات الملاك كانت ريحاً قلقة لا تستقر. كانت كلمات ونطافاً. وكانت واحدة منها تكفي.

بقيت واقفة أمامه كما كنت وقفت من قبل أمام يوسف. وهو كان يجلس ثم ينهض ثم يجلس ثانية ويطلب مني أن أجلس. غير أني بقيت واقفة. كنا مخطوبين وحسب وكان من السابق لأوانه أن نجلس لوحدنا تحت سقف واحد. كنت طلبت اللقاء معه وقد تمت الإستجابة لطلبي. ولكن كان ثمة لغط كبير وكان المساء قد حل.

شبكت يديّ حول بطني ورحت ألعب بالشعر وأدرك من خلال أصابعي أن حياتي كلها قد تبدلت. كان الأمر بالنسبة لي بمثابة اليوم الأول للخليقة.

كنت أحاول أن أتذكر أي شيء لكي أخفف من روعه. كان عجزه يحزنني. كنت أشعر بالأسف لحاله خائفاً من أن ينفرط عقد زواجنا.

لم أكن أفكر بالنتائج. لحظة بعد أخرى كنت ازداد ابتعاداً عن سكة الشرائع. كنت أحاول أن أتذكر ولكن لم أكن أفلح سوى في

الشعور بفرح يغمرني وبابتهاج بهذا المكان من الجسد الذي يجعلني أماً من دون عون من رجل.

أثناء صلاته تذكر شيئاً: «بيروخا آت ميكول هاناشيم»، مباركة أنت أكثر من كل النساء.

«بيروخا»؟، «ميكول هاناشيم»؟، كان يردد ذلك مذهولاً، مذعوراً. على أصابعه التي إسودّت من أثر حبات الذرة.... كانت تسقط دموع بيض.

ـ لا يكفي يا مريم. لا يكفي السؤال. ساعديني. تذكري المزيد.

ـ كفى يا يوسف. كفى. لقد أخبرتك. هذا ما حدث في وضح النهار من هذا اليوم. أتيت لأخبرك فافعل بي ما تشاء.

كان يوسف يستغرب هدوئي. وكنت ازداد تعلّقاً به.

نهضت ورفعت رأسي وأنا أجفف وجهي بهاتين اليدين المقدستين اللتين كنت ستقبلهما.

ـ هل تعلمين بالشرائع يا مريم؟

ـ أعلم بالشرائع.

ـ بالتفصيل؟

ـ ليس بالقدر الذي تعرفه أنت. ليس كل الفقرات. أنتم الرجال تحفظون عن ظهر قلب. أنا أعرف النتائج.

ـ دعيني أكرر على مسامعك الآيات المقدسة من كتاب ديفاريم(*):

حين يحدث أن فتاة عذراء مخطوبة لرجل يأتيها رجل آخر وينام معها. ستلقون القبض عليهما وتخرجونهما إلى إحدى بوابات المدينة وهناك ترجمونهما إلى أن يموتا. الفتاة لأنها لم تصرخ وتطلب العون والرجل لأنه اغتصب المرأة التي التقى بها. وستحرق الرذيلة وتخرج من الصدر.

وإذا استفرد الرجل بالفتاة المخطوبة في مكان خال وأجبرها على النوم معه يقتل الرجل الذي نام معها وحده(**).

ولن تلحقوا أي أذى بالفتاة. لن يكون ثمة حكم بالموت على الفتاة لأن الأمر أشبه بقيام رجل بقتل شريكه. هكذا هي القضية. لأن الفتاة التي التقاها الرجل في المكان الخالي كانت تصرخ ولكن لم يسمعها أحد. هذا هو الشرع الذي نخضع له جميعاً.

(*) كتاب الرب.

(**) الترجمة الحرفية للعبارة العبرية. والمعنى هنا أنه إذا التقى رجل في مكان خال بفتاة مخطوبة لرجل آخر ونام معها فـيقتل الرجل وحده من دون الفتاة لأنها حتى لو صرخت طلباً للنجدة لن يسمعها أحد.

- إسمعيني يا مريم. هناك حل. غداً تذهبين لوحدك بحجة البحث عن عشب شتوي لتحضير دواء وترجعين مساء من الحقل وتقولين أنك تعرضت للاغتصاب هناك وأنك صرخت من دون جدوى. وقد وقع مثل هذا كثيراً من قبل. يعرف الجميع فتيات أفلحن في الإفلات من تهمة الزنا.

رأيت يوسف للمرة الأولى. عرفت وجهه الرزين رغم الإرهاق والذباب من حوله. رأيت أمامي رجلاً يائساً يحاول أن يصلح الوضع بالأكاذيب. يا للأهمية التي يسبغها الرجال على الشرائع بحيث أنهم يضطرون إلى فعل هذا. قلت: لقد جاء هذا الرسول إلي في وضح النهار. وكانت الأبواب والنوافذ مفتوحة على مصاريعها. وجدت نفسي أمامه وجهاً لوجه. ولم أنطق بكلمة. حتى أني لم أرد التحية التي ألقاها بصوت عال.

- أعرف ذلك يا مريم. ولكن الآن يجب أن نعثر على حل. أن نجد عذراً لحملك خارج الزواج. مريم، أحبك. أقول لك ذلك لأنني أصدق ما تقولين وأريد أن أنقذك. يا مريم، سيأخذونك إلى بوابة الناصرة ويرجمونك هناك. وسيطلبون مني أن أرمي الحجرة الأولى. هل فهمت الآن؟ هل تفهمين؟ هل تجهلين شرعنا؟

كانت كلماته تختنق كي لا تخرج وتتحول إلى صراخ.

ذكرته بأن فتيات إسرائيليات أخريات صرن أمهات بإعلان من الملاك.

ـ كن متزوجات يا مريم. وكن عاقرات لاينجبن وكان الإعلان بمثابة تخصيب. كان الأبناء بذور الأزواج. كان إسحق من إبراهيم وصانصون من مانواح. أنت مخطوبة وحسب ولم تصبحي زوجة بعد. وثمرة بطنك ليست ذريتي.

كان على حق. الرجال على دراية بالتاريخ المقدس أكثر من النساء. هم في وسعهم أن يدرسوه أما نحن فلا. لهذا لُذت بالصمت. لم أكترث. لا يهمني ما يفعله الرجال بأحاديثهم، هم الذين يتشبثون بكلماتهم مثلما يتشبث المسمار بالخشب.

كانت هناك نساء في إسرائيل يناهضن الشرع، وكن على حق. لقد تحركن بأجسادهن ضد الوصايا وأصبحن أمهات لإسرائيل. تزوجت تامارا الكنعانية إثنين من أبناء يهودا دون أن تحبل منهما. وعدها يهودا برجل ثالث ثم نكث وعده. فلجأت تامارا إلى ممارسة البغاء. وعادت منقبة فلم يتعرف إليها يهودا. لم تكن تملك مالاً فرهنت ممتلكاتها المختومة. ولكنها حين أرسلت خادمها في اليوم التالي لكي يجلبها لم يجدها. ثم انتشر الخبر بأنها حامل. إتهمها

يهودا، رئيس القوم، بالزنا وأمر بحرقها. فأخرجت تامارا الودائع وقالت أنها حبلت من مالكها. تعرف إليها يهودا وقال أمام القوم أجمل عبارة يمكن أن يتفوه بها رجل إسرائيلي: إنها على حق أكثر مني.

لقد انتهكت تامارا الشرع كي تتمكن من تطبيقه. فقد كان من حقها أن تصير أمّاً في إسرائيل. جميل اسم تامارا، النخلة التي تعطي الثمار.

كانت هذه الأفكار تتزاحم في رأسي ولكنني لم أتفوه بها.

ـ ما بك يا مريم؟ أتبتسمين؟ ليس لدينا وقت. لقد حل الظلام وليس في وسعنا البقاء معاً فترة أطول. يجب أن نفترق الآن ونحن لم نقرر بعد شيئاً.

كنت فرحة. أردت أن أعانق يوسفي الذي شعرت نحوه بحنان غير مسبوق. الإحترام والخضوع، هذان الشيئان اللذان يحضّوننا على إبدائهما إزاء الذكور سرعان ما يتحولان إلى مشاعر حنونة. ولكن بشارة الملاك واستجابة جسدي في هذا اليوم حررتاني. لم أشعر بالخجل. الثقة بأني لم أجانب الصواب منحتني القدرة على التفكير والتصرف.

مع هذا الحنان جاء الشعور بالرضا. لقد صدقني. منحني ثقته

بالرغم من كل شيء. في وجهه الجميل لم تتحرك عضلة واحدة من الشك. لم يرف له جفن. لم يُلقِ عليّ نظرة جانبية. تلك كانت المرة الأولى التي يرى فيها مريمه وجهاً لوجه. لأنها كانت المرة الأولى التي أحدق في وجهه من دون أن أخفض رأسي وهو أمر لا تجرؤ الزوجات على فعله. لقد صدقني. وأنا فرحة وممتلئة بالعرفان نحوه. إفعل ما تراه مناسباً يا يوسف، فأنا اليوم لك أكثر من أي يوم مضى. أكثر من الوعد.

المقطع الثاني

في تلك الليلةِ رأى يوسف حلماً. وقد أخبرني عن ذلك في ما بعد. رأى في حلمه ملاكاً يخبره عما لا بد منه. عليه في الصباح أن يجمع أفراد عائلته ويخبرهم بقراره: أن يتزوج مريم في الموعد المقرر في أيلول ولو كانت حاملاً. في خيمة الطقوس سيلمح بطني الحامل.

لم يكن ذلك معقولاً. كان فضيحة. هبت القرية في وجهه.

ـ لقد خدعت مريمُ يوسف. حشتْ رأسه بحكاية عجيبة وخلبت لُبّه.

ـ يوسف أحمق.

ـ يوسف انتهك الشرائع.

ـ لم يلتزم حتى بشرائع الغيرة(*). كان في وسعه على الأقل إجبارها على شرب الماء المرّ أمام الكاهن.

(*) شرائع الغيرة في الكتاب، الأرقام ٥، ١٢، ٣١.

ـ ولماذا؟ هو لا يشعر بالغيرة طالما أنه يقبل بها هي التي حبلت من غيره.

ـ ولكنه ليس منا. ليس من الجليل. إنه أحد رعايا يهودا. إنه من بيت لحم، فليعد إلى هناك مع زانيته وابن الزنا الذي معها.

كانت الإهانات تنهال عليه. كان يتعرض للرجم بدلاً مني. ولم يكن بمقدوري الوقوف إلى جانبه، وتقبيل يده وإضحاكه هو الذي كان يضحك دائماً من ضحكتي.

إضطرّ أن يترك محل النجارة الذي يعمل فيه، وفتح محلاً صغيراً وضع فيه أدوات قليلة حصل عليها بالقرض. كان نجاراً ماهراً. ووجد الناس أنفسهم يلجأون إليه من جديد رغماً عنهم. لم يكن يتحدث إلى الزبائن لأن أحداً من هؤلاء لم يكن يرغب في التحدث معه بما يتعدى التفاوض على السعر والإستلام.

يوم السبت كنا نجلس في بيت الصلاة في حيز يفصل الرجال عن النساء وكنا معزولين. كان علينا الانتظار. كان هذا وقت الحصاد وكان هناك كثيرون بحاجة إلى أدوات جديدة. كان يوسف يعمل كثيراً. وكان يصنع أفضل أنواع مقابض المناجل. شيئاً فشيئاً بدأ الصمت ينجلي من حوله. تحيات الصباح الأولى في السوق. كلمات الإطراء لنوع الخشب الذي يستعمله. وكان يرد عليهم من دون تبجح ومن دون الحفاوة التي كانت سائدة في السابق.

كان ثمة شيء آخر يستحق الإنشغال به. قيام الجيش الروماني باحتلال أراضينا أدى إلى قيام تمردات وعمليات قمع. كان الشبان اليهود يلقون حتفهم معلقين على صلبان الخشب، وهي طريقة إجترحتها روما لإنزال أكبر قدر من العذاب بالضحايا. وقد فرضوا المزيد من الضرائب وأرادوا إجراء إحصاء إجباري للسكان. كان يريدون معرفة أعدادنا كي يتحكموا بنا بشكل أفضل.

كانت النساء في الناصرة يسترقن النظر إلى بطني.

- صارت تلجأ إلى الشراب كي تخفي خجلها. ولكنها لا تفعل ذلك أمامنا.

- إنها تتصرف كما لو كانت سندريلا.

- يا ليتني أعرف لمن ابن الزنا الذي في بطنها.

- أية كذبة هذه؟ مخلّص، ملاك، يا للمهزلة إن أنجبت بنتاً.

كانت النسوة يبصقن حين أمرّ من أمامهن، حين كنت أذهب لأداء مهام السبت. وإزاء إهاناتهن كنت أشد قامتي وأبرز بطني. كنت أقول بصوت منخفض، تفادياً لغضبهن، إني أتمنى لهن الشيء نفسه.

بركة البركات. كنت أخاف من الحسد في عيونهن.

ومع هذا كنت سعيدة. أن أكون حاملاً، مكتملة مثل القمر.

كنت أعد الأسابيع كأقداح النبيذ. لا دورة شهرية. كل شيء نقي ورائع فأمتلئ نشوة وفرحاً.

يقولون أن الحوامل يشعرن بالغثيان والقرف، أما أنا، بالعكس، قويت عندي حاسة الشم. كنت أشم روائح بعيدة وكنت أميز فيما بينها. كنت أشم رائحة الجيلاتين الذي كان يوسف يمزجه مع صمغ الصنوبر. كان أنفي اكتسب دقة عالية في الشم بحيث أتخيل يوسف أمامي وهو منكب على العمل. وكانت الروائح السيئة أيضاً صارخة. كنت أول من أحس، عبر الشم، بقدوم الكتيبة الرومانية.

مع كل نفحة هواء كنت أخاف أن أجد نفسي أمام الغريب. لم يكن هذا البذار بذاره. لقد حمله من مكان ما. لم يرجع. طوال فترة الحمل لم أقابله قط ولم أره في المنام.

لزمت البيت طوال فصلي الربيع والصيف. كانت الليالي هادئة في نهاية شهر أيلول، حين تنتهي الأعمال في الحقول.

في دكان يوسف كانت الطلبات تتوالى. وهو اتخذ مساعداً له. وجاءت سيدة أخبرت أمي أن يوسفاً رفض طلباً للرومان. وهي قالت في نبرة احتجاج أن الأمور مع هؤلاء كانت على خير ما يرام في الناصرة. فضلاً عن أنهم يدفعون بسخاء مقابل أي عمل يطلبونه.

ـ يوسفك التابع ليهودا هذا، هذا الجنوبي، يعمل بجد ولكن

الأفضل له ألا ينشغل بالسياسة. لا نريد الإصطدام بالرومان هنا. قولي له هذا أنت الجليلية مثلنا.

كنت أبتسم في غرفتي ليوسف الذي يعرف أن يقول نعم لي وحدي وليس لبقية الخلق.

أيها السيد، أدوناي، إن عبارتك تصدم أمّنا حواء. «بمشقة ستنجبين أولاداً». لم يكن يخيفني هذا. في لحظات المخاض ثمة عناء. سأبذل جهداً كبيراً كي أفصل الوليد عني. نحن الآن إثنان في جسد واحد. طوبى للمشقة التي ستفصلنا عن بعض.

في هذه الأيام في نهاية فصل الصيف وقبيل الزفاف أعرض جسمي للشمس على السطح في الصباح الباكر بحجة تجفيف التين. أكشف بطني فيصل الضوء إليه من خلالي. أخبره: «هذا ما ينتظرك في الخارج. ليس رؤية ما هو بعيد وحسب. بل ثمة حرارة. هل تشعر بالشعاع الذي يغمرنا ونحن ممددان؟. هذا اسمه الشمس. لا تستطيع عيناي التحديق فيها ولكن عينيك تستطيعان ذلك لأن ماء الرحم يحميهما».

نساء قومنا يغطين أنفسهن كي لا يتعرضن للشمس ويخسرن اللون السري الأبيض لأجسادهن. أما أنا فبالعكس أفرح حين تلفح الشمس عنقي ويدي. في هذه الصباحات أنهض باكراً كي أستقبل الشمس فيعتاد الطفل عليها ولن يخاف منها حين يأتي إلى الدنيا.

وقد إعتاد على ذلك منذ الآن وهو فرح به. إنه يرقد على بطنه مثل جرو. أتكلم إليه: سيدهشك الليل أكثر من النهار. إنه رحم كبير زاخر بالأضواء. في أمسيات الصيف تنفصل بعض تلك الأضواء ويمر بالقرب منا مصفرةً. ومن وسط تلك الأضواء يمر طريق أبيض، مثل سائل حليبي، سترغب في شربه حين تلمحه. تخيل أنني واحدة من بين تلك الأضواء ومن حولي جمهرة من أضواء أخرى. هكذا هو الليل. حشد من الأمهات المضيئات يُسمّين النجوم. من بينها كلها أنا فقط لك. حين ينظر المرء إلى هذه النجوم تتسع حدقتاه وتتلاحق أنفاسه. ولكنك ما زلت تجهل ما يعني التنفس. تلك الحركة الصاعدة النازلة التي تجعلك تتأرجح.

والآن حان موعد الرجوع إلى الداخل. العلامة هي التعرق. لا أحد يعرف ما إذا كانت النساء الحوامل الأخريات يتكلمن مع المخلوق القابع في أعماقهن مثلي. الغريب بالنسبة لي هو اعتقادي بأنني إنما أجيب على أسئلتك. يتطلب الأمر أيها الفتى أن تخرج من هناك ونلتقي. أنا مريم فمن أنت؟

أنظر إلى النساء اللواتي سبق لهن أن أنجبن، هانئات، وقد لففن أولادهن في أقمطة وليس في أمرهن ما يثير فضولي. أما ولدي فلن أدفنه في لفافات بل سأتركه يلبط حراً مثلما يفعل الآن في بطني. لن يكون «إبني» مثل أبنائهن. آه، ما هذه اللبطة؟ أتحتج على أمك دفاعاً عن كرامتك؟ حسناً تفعل. تضع حداً لجنوحي. أنا في الواقع

لا أفعل شيئاً خارقاً بل أتهيأ لاستقبالك وحسب. حسناً سيكون ثمة مخاط على أنفك وستعطس، مثلهم تماماً، ومع هذا فأنت دخلت بطني من نفح كلمة لا من نطفة. ستكون مليئاً بالريح.

لقد تزوجنا في نهاية الصيف، وقت الحصاد وقطاف الكروم. في مثل هذا الوقت في الناصرة يتزوج الكثيرون وتقوم حفلات زفاف كثيرة. ولكن المرء لا يستطيع أن يرقص في حفلتي زفاف في وقت واحد. وهكذا لن يأتي المدعوون إلى حفلة زفافنا. لن يحضر عرس الفتاة العذراء سوى الأهل وأقرب الأقرباء.

كان يوسف مثقلاً بالهموم ولكن جسده كان يبتسم له. مد يده إلي من تحت ستارة المظلة التي كان الهواء يتلاعب بها. يده الحنونة التي حمتني، ولم تتهمني، ولم ترفع الحجرة الأولى التي يفترض بزوج الزانية أن يرجمها بها. يده الخشنة من كثرة الشغل كانت تلتف وهي ترتجف على يدي التي ارتاحت أخيراً داخل يده.

في تلك الليلة تكلمنا حتى الفجر. قال يوسف: يا مريم، سأنتظر ولادة إبنك كي ألمسك. سأنتظر حتى تكتمل أيامك. لن أدنس جسدك الذي يحمل البشارة بلحمي.

سألته إن كان ذلك أمراً من الملاك فأجاب بالنفي وقال إن ذلك نابع من إرادته.

ـ ولكنه إبنك أيضاً، فأنت حميت حياته. إنه إبنك مرتين، لأنك منحت الأم أيضاً حياة ثانية.

ـ إنه إبنك يامريم. ولكنني سأتصرف أمام الناس كما لو كنت أباه. سأسجله بإسمي وسينتسب إلى قوم يهودا، الابن الرابع ليعقوب ـ إسرائيل. وسيوضع في سلسلة النسب التي تبدأ من داوود، جدي الأعلى. سأروي له حكاية عائلتي وسأعلمه المهنة. لا تخافي يا مريم، سأكون أبوه ولكنه لك.

وماذا لو كانت بنتاً كما تقول الإشاعة؟ فكرت بهذا الأمر على سبيل اللهو من دون أن أخبره به. تحرك بطني بضربتين، خبطتين. أبدى الجنين ردَّ فعل قوياً. وأحس يوسف أيضاً بذلك لأنه كان قريباً مني. ـ هل تحرك؟

ـ لقد لبطني برفستين قاسيتين وسريعتين. أنا أستحق ذلك.

هو يعرف أفكاري. إنه ولدٌ وليس بنتاً وهو يؤنبني. هو يشغل كل كياني وليس بطني فقط. يحتل عقلي وأنفاسي ويشم العالم من خلال أنفي. يقيم في كل خلايا جسدي. وحين يخرج سيترك فراغاً، سيتركني مثل قوقعة جوز فارغة. لا أريده أن يولد. يلبطني من جديد ولكن بشكل أخف هذه المرة.

أمر رائع أن أتوقف عن النزيف. أن أعود إلى جسد طفلة. كانت رفيقاتي يسردن بشغف لحظة الخصوبة الأولى. كن ينتظرن الدورة

الشهرية بلهفة. أما أنا فكان يسرني أن أكون الأخيرة من بينهن، المتأخرة. كانت أمي مشغولة وحين استيقظت وعلى فخذي دم جاف للمرة الأولى ذهبت إلى الساقية كي يرى الجميع ذلك. احتفلت بالأمر ووزعت الحلوى، ولكن بدا لي وكأنني فقدت جزءاً من جسمي.

الآن أعود لعزلتي، غير مكترثة لدورة القمر في الدم. أحب العودة إلى النقاء. مبارك يوسف الذي لم يلمسني.

- مريم، هل تعرفين ما هو الشكر؟

- ليس بالضبط.

- إنه ليس نزهة ممتعة. ليس سلوكاً راقياً لبعض السيدات الطيبات عندنا. إنه القوة الخارقة التي تدفع المرء إلى تحدي العالم ودعوته إلى المبارزة، وحيداً ومن دون وجل. إنه ليس طبعاً نسائياً بل هو مهر الأنبياء. إنه عطاء ولقد استحققته. من يملكه يتحرر من الخوف. رأيتك تملكينه منذ يوم اللقاء ومازلت تملكينه. أنت ممتلئة بالشكر. أنت محاطة بسور من الشكر. أنت محصنة. وها أنت تنشرينه من حولك، تنشرينه علي أيضاً.

كانت كلمات يستحق أن أحضنه من أجلها. بقينا ملتصقين من دون أية مداعبة. فكرت لحظة ثم قلت، مازحةً: أنت غاطس في بحر الحب حتى أذنيكَ يا يوسف.

بعد الزواج ذهبت إلى السوق. لم يكن ثمة لغط كثير. ولم يعمد أحد للتحدث من وراء ظهري. لقد صرت زوجة. كان خبر الزواج انتشر مثل شهاب ظهر ذات مساء في الأفق من وراء تلال الناصرة. كان هذا بالنسبة لقومنا نذير شؤم.

- ستنتشر الأمراض.

- سينتشر الجراد.

- ها قد غزا الرومان ديارنا، ماذا يمكن أن يحدث أسوأ من هذا؟

بخلافهم كنت مسرورة. كنت سمعته يتحدث عن أمي التي رآها حين كانت حبلى بي. ولهذا فإن عودته كانت بمثابة بشارة طيبة لحملي.

أشعر بالسعادة حين يعبر القمر من أمام الشمس ويعتمها في عِز النهار. يخيم سلام عارم على الأرض ويتوقف النمل عن الدبيب. في هذه اللحظة لا يسرق أحد، لا يقتل أحد، لا يموت أحد. للحظات يعمد الناس إلى التصرف بشكل حسن والتكلم بأدب.

عاد يوسف في المساء. وكنت أجهز له العشاء. كان يحب السمك الذي يأتي مملحاً من يام كنيرات(*). أحضرت له السمك مع البصل والرز.

(*) بحيرة طبريا.

كان يحب أن يصنع قوارب للصيادين في مجدلة. قال: «أتمنى أن يولع الصبي بالماء ويتعلم صيد السمك». قلت له: «إنها مهنة خطيرة، صيد السمك». - «رؤية الشمس وهي تشرق من وراء البحيرة أمر مدهش يجعلك تحبين العالم. ولكن أنت على حق يامريم، فغالباً ما تهب عواصف في البحر على نحو غير متوقع».

قبل أن يجلس إلى الطاولة كان يفرك يديه بقوة ثم يمد جسمه كله. تصعد أصوات من المطبخ. أحبها كلها، صوتاً صوتاً. آخرها صوت الماء الوسخ وهو يجر قشور البصل.

كان يأكل بشهية وينظف الوعاء الخشبي برغيف الخبز. كان يقطع الخبز بحركة دقيقة وبطيئة. وكان يحرص ألا يفعل ذلك أمام أحد غيري.

كل مساء كان ينكب على تقطيع الخبز بهدوء وبيدين منخفضتين. لم يكن يستعمل السكين أبداً. كان يحذر من ذلك، من أجل البركة: «مبارك أنت يا أدوناي، ملك العالم، يا من تجعل الخبز يطلع من الأرض».

كان هو يقطع الخبز وكان الولد يتحرك.

كان يوسف يدخل في جدال صاخب مع أهل البلدة حول موعد الزفاف. وكان يخبرني عن كل ذلك.

من عاداتنا أن تتزوج الفتاة يوم الأربعاء. ليست عادة جيدة. تلتئم المحكمة يوماً في الأسبوع، يوم الخميس. إذا كان لدى العريس ما يقوله بشأن عذرية العروس فإنه يذهب من فوره إلى المحكمة في اليوم التالي للزفاف. من هنا نشأت عادة التزوج من العذراوات في يوم الأربعاء. في حالتي، أنا الحامل، لم يكن هذا اليوم يعني لي شيئاً. ولكن يوسف أراد أن يتم الزفاف يوم الأربعاء. لم يكن الأمر يتعلق بقانون بل بعادة. وهو بذلك أراد أن يكشف عن استهزائه بتلك العادة.

لقد أصر على رأيه وتشبث به ودفع الثمن من أجل ذلك ولكنه حصل على ما يريد. أن يقام العرس في اليوم الذي يريد. قال له أحدهم: نتقابل في المحكمة في اليوم التالي. فأجاب يوسف: إذن ستنتظرني هناك العمر كله. وامتلأت الوجوه بالإمتعاض ولكنه لم يبالِ.

حين انتهى الأمر على هذا النحو ابتسمت وعاتبته: أليست كل الأيام مثل بعض؟

ـ لا يا مريم. نحن على حق. أنت عذراء. وأنا أتزوج عذراء يوم الأربعاء لأبين للمحكمة أن ليس هناك ما يعنيهم.

ـ نحن في جهة والآخرون كلهم في جهة أخرى. لا بد أن

إحدى الجهتين على خطأ. يوسف، نحن على حق. ولكن هل يمكن أن يكون القوم كلهم على خطأ؟

قلت له ذلك ليس بدافع الشك بل لكي أسمع رأيه.

ـ لا أحد على خطأ يا مريم. الحقيقة هي أنك تمثلين استثناءً وليس لديهم ما يكفي من الشجاعة كي يقروا بذلك ويقبلوه. الأمر يتعلق بحب من اللحظة الأولى فيما هم لا شيء يشغلهم سوى العادات والتقاليد. بالنسبة لهم أنت حجر عثرة، بالنسبة لي أنت حجر الزاوية التي تنهض عليها الحكاية كلها.

كان يوسف يحاول أن يضع الحب فوق الشرع.

ـ من أين تستمد القوة كي تتحدى الجميع يا يوسف؟

ـ منك.

في نهاية موسم قطف الكروم دخلت مرحلة الأنتظار. في الطريق كانت النسوة ينظرن إلي شزراً.

ـ لقد انكشف السر. قريباً سنعرف لمن يعود الولد. يشبه من.

رضيت أن أكظم غيظي حين سمعت يوسف يقول أن أمراً إجبارياً صدر وأن عليهما الرحيل إلى بيت لحم. حاول أن يطلب منهم تأجيل ذلك لأنني كنت على وشك الولادة ولكن السلطات رفضت ذلك. لم يحترموا يوسف.

خافت أمي كثيراً. ـ ستسقطين الجنين، ستتألمين كثيراً ولن تتعافين. يا لحظك السيء يا مريم.

كنت أستمع إلى نصائحها الكثيرة المتلاحقة وهي تساعدني في ترتيب عدة السفر. كنت سعيدة للسفر وللولادة. رحيل. ولادة. لاليخيت. لاليديف. لاليخيت. لاليديف. لالي. لالي. من أجل تهدئة مخاوفها كنت أقول لها: ـ ستكون أسهل عملية ولادة في العالم. يا أمي ثمة حياة تعاش وتنمو وتستعد لتجد طريقها إلى العالم. بعون السماء كل مكان سيكون مناسباً.

وكنت أفكر من دون أن أقول لها: سأنجب لك سبطاً رائعاً يا أمي، كوني على ثقة من ذلك.

كانت تهدأ قليلاً. ثم تبدأ من جديد: ولكن السفر والأتان والبرد. أنت جاهلة. كانت تقول لي ذلك فأبتسم وأرد: ثم هناك يوسف. سيهيئ له أفضل مكان. كنت أردد ذلك فترد: ولكنه رجل يا مريم. الرجال جيدون في القيام بأعباء الشغل والثرثرة ولكنهم عاجزون أمام الولادة والموت. هم لا يفقهون شيئاً من هاتين المسألتين. يلوذون بالنساء في الفتح والإغلاق.

ـ أنا سأهتم بالموضوع يا أمي، لا تقلقي.

كان علينا الرحيل بأسرع ما يكون لأن بيت لحم بعيدة، وكنت سعيدة لأني سأضع المولود هناك. في مكان، رغم أنه بعيد

ومفتوح، ولكن في مأمن من نظرات نساء القرية. لن تسبقني واحدة منهن، حتى ولا القابلة من الناصرة، في رؤية الوليد أو لمسه. أن أضع المولود وحيدة أفضل ألف مرة من فعل ذلك بحضورهن. «مباركة أنت يا مريم، أنت بهية، تواجهين المشاكل بروح مرحة وتمدينني بالعزيمة. كان الملاك محقاً في تسميتك بالمباركة من بين كل النساء. بيروخا آت ميكول هاناس هيم».

وكان يوسف سعيداً للغاية للذهاب برفقتي. كان يمضي بخطوات مجنونة على إيقاع الكلمات: بيروخا آت ميكول هاناس هيم. وكان يلوح بيديه وكان الجنين يرقص في بطني.

- أترين يا مريم، ستلدين في الغربة، بعيداً عن هذا البلد والقيل والقال فيه. سيرونه بعد عودتنا بشهر في أعقاب الختان. سنقيم حفل الختان هنا.

كنت أفكر من جانبي بهذه الأشياء وكان هذا مبعث سروري.

- ولكن ماذا سنفعل إن لم نجد هناك قابلات في لحظة الولادة؟

- لا تهتم يا يوسف. لقد سألت أمي عن كل شيء. وفي وسعي أن اضع المولود مغمضة العينين. حين كنت تذهب إلى الشغل كنت أتمرن على الولادة لأنني كنت أفكر بأنني سأضع هنا من دون حاجة إلى قابلات الناصرة. علاوة على أنني سأحظى بعون ذاك الذي زرع

الجنين في رحمي بالبشارة. لا تخف يا يوسف. تهيأ للسفر وهيأ ما هو ضروري وأنا جاهزة. ولكن قل لي، هل أحضرت سكيناً؟

ـ لماذا؟

قال يوسف ذلك مذعوراً.

ـ سيتحتم علي أن أقطع حبل السرة.

ضرب يوسف جبهته بيده ثم قال: ـ أوه يا مريم كيف سيكون في وسعك القيام بذلك بعد أن يكون التعب أنهكك بعد الولادة؟ ستحتاجين إلى مساعدة. أنا لا أستطيع أن أساعدك. يمنع على الرجال فعل ذلك. كيف ستنجحين في القيام بذلك بمفردك؟ وأنت لم تضعي مولوداً من قبل؟

ـ لن يصعب علي ذلك. أجلب سكيناً وليكن نصله حاداً بحيث يقص الشعر.

وضعت يدي على جبهته كي أعدل شعره وأطرد الوساوس من رأسه.

كنت أشعر بأنني عصية على القهر طالما كان يوسف بجانبي والآخر في بطني.

قال: ـ فليكن كما تشائين. هذه المرة أتبع إرادتك.

المقطع الثالث

وضعت سرجاً ناعماً على ظهر الأتان وصعدت بهدوء واستقررت على ظهر الدابة. تعانقنا لأول مرة منذ زواجنا. وكررنا العناق في كل استراحة على الطريق. عناق في الصعود وعناق في النزول. وقد وضع الصرّة على ظهره كي لا يجهد الأتان زيادة على اللزوم. وكان صنع عصا من شجر الزيتون تساعده على المشي. عصا أطول منه. وقد انطلقنا قبل الفجر كي لا يرانا أحد.

يحدث أن يهطل الثلج عندنا في أوائل فصل الشتاء. يغمر الحقول والأشجار ليلاً. كانت الطرقات مليئة بالناس وهم يحثون الخطى كي يصلوا إلى أماكن سكنهم قبل إجراء الإحصاء. على كل امرئ أن يدون اسمه في مسقط رأسه.

وحدهم أولئك الذين بقوا في أماكن ولادتهم ولم ينحدروا منها مثلما ينحدر النبيذ على شفة الكأس لم يضطروا إلى الرحيل. كان هذا ما يردده الناس في ما بينهم وهم يختلطون ويسيرون معاً على

الطريق. كانت العربات كثيرة وكان الناس ينتهزون الفرصة كي يقوموا بقليل من التجارة.

كانوا يشكلون طوابير وكانت الطرقات تمتلئ بهم. كان البياض يخيم على الحقول فيما اسودَّ الطريق من المارة والوحل. السماء زرقاء عميقة تعبرها ريح الشمال. كنت أتنفس بعمق كي أجعل الطفل يشعر بما يجري من حوله. كان هناك مزيج من التناقضات. الأعلى والأسفل يتصادمان ويتبادلان اللبطات وفي الوقت نفسه يتلامسان برقة وحنان. كانت الأتان تخبط الأرض بحوافرها فترد الأشجار التحية بأفضل منها وتهز أغصانها وتنفض عن كاهلها قليلاً من الثلج.

على طول الطريق كان الرجال يتبادلون التحية والأخبار وكانت النساء يزدن على ذلك بتبادل الأشياء في ما بينهن. أما أنا فقد فضلت البقاء مع الأتان والإنصات إلى أحاديث الرجال. أحدهم قال ليوسف: هل يشبه حالنا ما ورد في أشعار كاهننا، كوهليلت، ابن داوود، ملك أورشليم حين قال: كل الأنهار تصب في البحر والبحر لا يمتلئ؟ فرد يوسف: ـ أحسنت القول. ها نحن مبعثرون مثل السواقي في النقب بعد الفيضان. في ذهني قول آخر لكهنوتنا: النهر الأعوج لا يستقيم.

ـ حقاً. أجاب الرجل. ليس ثمة علاج لهذا. الإعوجاج في الجذر وليس في الفرع.

يتداول الرجال الكتاب المقدس في شؤونهم اليومية.

أثناء الحمل تنشأ الرغبة في الكلام ويتعمق الإدراك بأهميته. يزداد فهمي للرجال الذين يسيرون معنا. يبدو أن الطفل هو الذي يعلمني. هو الذي زرعته البشارة في أحشائي، زرعته الكلمات المباركة.

يعطي يوسف الزيتون فيبادله الآخرون بالجبن. يستأنفان الحديث. يقول الأول: الشطر الثاني من القصيدة المحفوظة عندنا تقول: لا يمكن للمرء أن يعدَّ ما هو مفقود. وفي وسعنا أن نشرح ذلك بالقول أنه إذا تلكأ كثيرون منا في الذهاب للإدلاء بأصواتهم فإن من العبث عدَّهم. يغير يوسف مسار الكلام ويقول إن أفضل شيء هو الطاعة. لقد تم إعداد جيش يرتدي أفراده اللون الأسود لمقاومة الرومان. فليعطوا قيصرهم ما يريد. يبقى لنا الواحد الأحد الذي ليس بمقدورهم التعرف إليه. ينصبون إمبراطوراً لا يعدو أن يكون مجرد كتلة من اللحم والدم لن تلبث أن تتحول إلى طعام للديدان. فلنعط لهذا القيصر ما له ولنحتفظ بما لا يقدر على انتزاعه منا.

يظهر التوترعلى يوسف. يصر الرجل: ـ ولكن تلك هي

المشكلة. إنه لا يطالبنا بالولاء وحسب بل هو يطالبنا أن نعترف بإلوهيته.

يفقد يوسف صبره هنيهة: ـ لن نختلف حول هذا الأمر. لقد هيأ لنا مصيراً آخر. أن نكون النبع الذي لاينضب للعالم الآتي.

ثم يهدأ قبل أن يستطرد: ـ الأفضل أن نعود إلى قولنا الأول. كل الأنهار تصب في البحر والبحر لا يمتلئ أبداً. نحن جداول ماء تدعونا البحار لأن نملأها. ونحن نفعل ذلك بكل طواعية من دون أي أمل في النجاح. هكذا هي إسرائيل. الأنهار الجارية، نهاليم هوليخيم، طريق سديد إذن. طريق سديد في اتجاهنا.

يعجبني قيام رجالنا باستخدام الشعر القديم للتعبير عن الحاضر جاعلين من الزمن لوحة واحدة.

لكي نتجنب الإصطدام بطوابير العربات نمضي إلى الحقول وبذلك نتخلص من الإصغاء إلى الشتائم واللعنات. يمر الجميع من أمامنا نحو الحفل الكبير في فصل الربيع. مرة واحدة في العام، على الأقل، عادة في عيد الفصح، يذهبون إلى الهيكل. إنهم حُجّاج في عجلة من أمرهم، يغنون، يرقصون، سعداء. أما هذه الرحلة الشتوية التي فرضها الرومان فهي تسبب لهم العذابات. يخفف الناس عن أنفسهم بأن ينهالوا باللعنات على الأرض

والسماء، وعلى أهل الحكم الذين أهملوا الطرقات وجعلوها نهباً للخراب.

كان يوسف قلقاً من الإحصاء، - إنه إهانة لإله إسرائيل الذي أراد أن يكون شعبنا كثير العدد مثل نجوم الليل ورمال الصحراء. من يستطيع أن يعد حبات التراب في ياكوفا ويحصي سكان إسرائيل؟ هكذا ورد في كتاب بيمبيدار(*). عندما تجرأ ملكنا داوود على إجراء إحصاء حدث وباء فظيع وهلك سبعون ألف شخص من دان إلى بير شبعا(**). قلت له: نحن بريئون من هذا الإحصاء. هذا من فعل الرومان. وهم يتحملون العاقبة والجزاء. فرد: - إنه كذلك يا مريم.

لم يكن أحد رأى الجنود الرومان إلا نادراً. ولكن حين لاحت علائمهم من بعيد خيم صمت ثقيل على الجميع. أخذت العربات تخلي لهم الطريق وكانوا يعبرون من دون أن يلقوا التحية. كانوا مكروهين في هذه المنطقة أكثر من أي مكان آخر من مستعمراتهم وكان الناس يريدون أن يتركوا عندهم هذا الإنطباع. من يعرف إن كانوا يلقون استقبالاً أحسن في أماكن أخرى.

أثناء مرورنا بأحد الحقول المغطاة بالثلج لاحت قطعة من

(*) الأرقام ٢٣، ١٠.

(**) المدى الممتد من شمال إسرائيل إلى جنوبها في ذلك الزمن.

الأرض اليابسة، الحمراء. كان ثمة دم. أخبرني يوسف أن الثلج لا يتراكم على الدم، لا يغطيه. «لن يغطي التراب دمي»، كان أيوب قال. ولكن الثلج وحده استجاب لدعائه. لقد شربت أرضنا الكثير من الدماء حتى سكرت. أرضنا المسكينة تضخ الدم كالينبوع. أكان ضرورياً أن تكون الأرض الموعودة؟ موعودة؟ لقد انتهكتها الأقدام مائة مرة واستولى عليها من هبّ ودب ووطأتها أقوام من الشمال والجنوب، من الشرق والغرب. كل من اشتهاها استولى عليها ثم وزعها على من يرغب فيها.

من أجل أن أغير مزاجه قلت له: الرحلة في الشتاء أجمل. لاتثير العربات الغبار ولا تتعرق الأجسام وليس هناك ذباب.

ووافق يوسف على كلامي بإيماءة من رأسه فيما هو يسير أمام الأتان ماسكاً باللجام.

الطريق من الناصرة إلى بيت لحم طويل. هناك دربان يؤديان إلى الجنوب. أحدهما يتبع نهر الأردن حتى الخليل ومن ثم يؤدي إلى بيت لحم من جهة الشرق. إنه درب قصير ولكنه أقل أماناً بسبب قطاع الطرق. الآخر يصعد من هضاب الكرمل ثم يجتاز منحدرات السامرة نزولاً إلى البحر ليصعد من جديد جبال يهودا. نحن اخترنا هذا الدرب. من قمة إحدى روابي الكرمل أشار يوسف إلى البحر. رأيت أمامي سهلاً فسيحاً من الزرقة وشممت رائحة الملح وشعرت

بطعمه على لساني. خطوات الأتان المتأرجحة من شأنها أن تفيق الطفل الراقد بهدوء. أيها البحر، السلام عليك أم على التمر؟

صادفنا رجلاً أعمى يقوده كلب. فقررنا اصطحابه إلى قريته لكي يدون اسمه للإحصاء. وانعطفنا قليلاً نحو البحر فتسنَّتْ لي رؤيته عن قرب وشعرت بالحزن من أجل الرجل الأعمى الذي لم يكن بوسعه أن يرى ذلك. أطلقت آهة فانتبه. قال أنه كان صياداً لثلاثين سنة وأنه يتذكر كل شيء عن البحر وحركاته. ووصف حال البحر في تلك اللحظة ولون الأمواج التي كانت تتلاطم بفعل الريح القادمة من الأرض. اندهشنا، يوسف وأنا، وتبادلنا الإبتسام.

قضينا إسبوعاً كاملاً نمنا خلاله في خانات مزدحمة.

ـ يبدو أن كل يهودي قد قرر العيش بعيداً عن مسقط رأسه.

ـ لقد قرر الرومان أن أعود إلى بيتي.

كان الرجلان يواصلان تبادل أطراف الحديث حول موقد النار في الخان.

ـ هاهنا ممنوع الخوض في السياسة.

كان صاحب الخان يتدخل ولكن سرعان ما كانوا يستأنفون الحديث.

ـ صاحب الخان يهرف بما لايعرف ولكنه سعيد لإجراء الإحصاء.

ـ يتحتم عليه أن يعطي نسبة مئوية للحاكم الروماني.

كان المكان يزداد ازدحاماً ومع ذلك فقد أفسحوا لنا مكاناً. كانوا يشعرون بالشفقة علي.

كان يوسف ينتفض من نومه على أدنى حركة مني. كان ينام بحذائه. عندما كان يضمني ليساعدني في النزول أو الصعود كان الجنين يرفسني وكان يوسف يشعر بذلك.

ـ حركاته تصل إلي. لا أستطيع أن أتخيل شعورك حين يلبطك من الداخل، في الأحشاء، تحت القلب، بين الكبد والكليتين. أي شعور هو يا مريم ذلك الذي ينشأ من حمل طفل صغير داخل الجسم؟

ـ كأنك تسأل الوعاء عما يشعر به؟ أنا مجرد ناقل. آه لو أعرف كيف هو شكله داخل بطني.

ـ ناقل؟ كيف تقولين ذلك؟

ـ من دون أن أعرف من هو الأب أي أم أنا؟ أنا مجرد ناقل.

ـ أعرف يا مريم أنك تقولين ذلك كي تؤكدي لي أنني أنا زوجك وليس أي شخص آخر. مع ذلك لا تعيدي قول ذلك. إنه نذير سوء.

ـ حسناً، لن أكرر ذلك.

لقد جاءني من دون أن أرفع ثوبي. هل سيخرج بنفس الطريقة؟ أم أنه سيولد كما تلد كل النساء عن طريق الضغط والدفع؟ لقد جاء مع ريح آذار ولكنه نما في بطني مثل كل الأطفال في العالم. ما الذي يجري له هو الذي بات على وشك الخروج بعد أن مرّ الوقت الذي كان عليه أن يطلع؟

ـ يوسف، يبدو لي أن الإحصاء هو مجرد ذريعة لنا. سنغادر في كل حال. إنه الأسبوع الأخير له هو الذي لا مستقر ثابت له ينزل فيه سوى ظهر أتان.

ـ مريم، يجب أن تختاري له إسماً، إن كان لي أن أختار فسأسميه إيشوع.

ـ أحب الأسماء القصيرة. مقطعان صوتيان يكفي. إيشوع، ابن يوسف ومريم، يبدو مناسباً.

ـ إيشوع ابن مريم ورجل مجهول.

ـ لا تقل ذلك، يا رجلي، إيشوع مشتق من فعل الخلاص، لأنك أنت من خلصته، إنه إيشوع المخلص.

ـ لا، لا يامريم، إنه إيشوع لأن الملاك أمرني بذلك في الليلة التي كان علي أن أقرر مصيري معك بعد لقائنا. لقد جاء إلي في الحلم كما رويت لك، مع أن واقع الحال يشير إلى أنني لم استطع النوم في تلك الليلة. جاء إلي وطلب مني أن أتخذك زوجة مثلما

أنت ومن ثم أخبرني بإسم الوليد. يا مريم أنا مذنب أمامك وأمام بطنك، ففي تلك الليلة أردت الهروب.

- لا يا يوسف لست مذنباً. لست هارباً وها أنت الآن هنا. أنت أشجع الرجال. لقد أرشدك الملاك ليلة واحدة فقط. ولكن في الأيام التالية كلها وقفت وحدك في وجه أهالي الناصرة كلهم، في وجه أهلك، في وجه الشرائع التي تدينني. وبقيت وحيداً لشهور ولذت بالصمت بعزيمة كتلك التي يتحلى بها الأنبياء. أنت الأكثر عدلاً بين الناس في الأرض.

بينما كانت كلماتنا تتدثر أكثر فأكثر بالحب كان القمر يدنو من ربعه الأخير وفي مكانه كانت تسطع نجمة صاعدة في سماء إسرائيل.

سيطر القلق على الرعيان وأصاب الذعر قطعان الغنم في هذا الضوء الصارخ القادم من أعماق السماء. كان النظر إليه يدمع العيون. وأخذ الرعيان يتناوبون السهر للمراقبة في الليل. وكانت أصواتهم تعلو وتتمازج من حول النيران التي أوقدوها لتهدئة الدواب المذعورة. لم يفرح يوسف لسماع خبر النجمة الساطعة. حسب الأمر جزءاً من لعبة الإحصاء والإحتلال العسكري.

حاولت أن أغير رأيه.

ـ إنها نجمة مسافرة مثلنا. هي دليلنا في هذه الليالي التي يغيب فيها القمر.

أجاب يوسف بابتسامة وإيماءة من رأسه. إن أقوى دليل على حب الرجل لإمرأته هو قيامه بتغيير رأيه كي يبقى على وئام معها.

بيت لحم، بيت الخبز. إهراءات القمح في الداخل. حراثة ومن ثم إستراحة في الشتاء. هواء ثلجي في الجو لم يصل بعد إلى الأرض.

وصلنا بعد استراحة قصيرة رتب خلالها يوسف أموره. مقارنة مع الناصرة تبدو بيت لحم مدينة.

لم يكن هناك مكان خال طوال الطريق الصاعد إلى التلة من زحمة العربات. كان لا بد من الإنتشار في الجنبات المترامية.

ـ لقد أحسن عملاً من جاء بالعربة حاملاً معه خيمة صغيرة. أما أنتما، أيها الرجل المبارك وزوجتك، فماذا بوسعكما أن تفعلا؟ الأتان مفيدة في الطريق ولكنها لا تفيد في الليل.

تركني يوسف مع الأتان خارج المدينة وراح. كانت رائحة النبيذ تفوح في الجو. كانت المطاعم تنبأت بالتأكيد بعبور الناس فتهيأت لبيع الطعام للمسافرين.

كانت آلام المخاض بدأت. عاد يوسف بعد ساعتين يائساً. لم يجد مكاناً يُؤوينا. هو كان ولد في بيت لحم ولكنه انتقل إلى

الجليل وهو طفل. لا أقارب له هنا ليستقبلوه. كانت المدينة تستقبل العائدين إليها من أجل الإحصاء. كل بيت يُؤوي الأقارب الآتين من أماكن بعيدة. كان يفرك يديه. لقد تضرع إليهم، إقترح أن يعطيهم الأتان من أجل سرير واحد، بلا جدوى. كان هناك إصطبل صغير يرقد فيه ثور. وهو، الحيوان، من بين الكل، رحب بنا، أنا والأتان.

حين تكون الفتاة عذراء يخطر لها أن كل حالات العشق ممكنة. ثم تبدأ الواحدة تلغي الأخرى. وحين تتزوج الفتاة فإن الأمر يصير بسيطاً للغاية. مثل ريح تعبر مرجاً من الزهور فتقصفها كلها ما عدا زهرة واحدة. المدى الشاسع للعناق، بالنسبة لي هو: قبلات يوسف على عيني ووقع كلماته في أذني.

وهكذا بقيت عذراء ولكن في نفس الوقت زوجة.. عذراء ولكن أم. إنها خارقة تلك القوة التي أسندتني وهي تهيئني. مثل الجرة التي تدور بين يدي صانع الفخار. بقيت صلصالاً ولكن مهيأً للحفر. الحمل هو وقت الإكتمال في الظل. فترة التجفيف. وها أنا: صلصال بروح حديدية. الحجارة التي أرادت أن ترجمني تكسرت.

المقطع الأخير

ـ سألد هنا. هذا مكان جيد. لقد عثرت على مكان مناسب، هادئ، ودافئ. سألد هنا. أنا قادرة على فعل ذلك. عند الفجر سأضع إيشوع على ركبتيك.

كانت الآلام بدأت حقاً. وبدأ يوسف يرتب القش على الحجارة اليابسة ثم مد فوقها غطاء مصنوعاً من الوبر. أحضر سكيناً ووعاء من الماء. تمددت. كان قلبي يدق بعنف وكانت دقاته تصل إلى رأسي فأغلق عيني. لم يكن هناك أحد في الجوار. كان الإصطبل الصغير بعيداً عن البيوت. كان ضوء صغير ينزل من كوة في السقف المصنوع من سيقان القصب والأغصان. كان هو، الشهب، منيراً في السماء مثل قنديل. قبل أن يخرج يوسف رتبت شعره وابتسمنا.

ـ هذا يفرحني.

قلت له ذلك وأنا أشعر بالغبطة.

خرج يوسف تاركاً السكين ووعاء الماء. الآن علي أن أتصرف. أن أشتغل. الولادة هي اشتغال على الجسد. كانت أمي شرحت لي

أن من المفيد الاستلقاء قليلاً نحو الأسفل. ولكن بعكس ذلك نهضت على رجلي وتمسكت بحافة المعلف. من خلفي شعرت بأنفاس الأتان والثور وبدأ أحدهما يلحس مؤخرة رقبتي. كانا يتنفسان بإيقاع سريع وقد ضبطت أنفاسي على ذلك الإيقاع.

تصبب العرق مني. مسنودة من الخلف أمسكت ببطني بكلتا يدي كي أساعد الجنين على التحرك. صرت أحثه بصوت منخفض وبأنفاس قصيرة. كنت أناديه. وكانت البهيمتان من خلفي تساعدانني. كانت وضعيتي تؤلم قدمي فانحنيت كي أخفف الضغط عنهما.

- إطلع يا ولدي، تعال إلي. أمك على أهبة الإستعداد لكي تتلقفك ما إن يظهر رأسك الصغير.

كانت عضلات بطني تتحرك مع أنفاسي. إنقباض فانشراح. دفع فسكون. حين كان الضغط يقوى كنت أعض على شفتي كي أكظم الصراخ.

كان يوسف بالتأكيد أمام الباب، يحرسني.

من بعيد ينهض صوت الرعاة وهم يهتفون لشاة تائهة.

- إنها ليلة صافية لا تدعو إلى التيه. يا حملي الوديع، السماء صافية والأرض ساكنة. الرحلة انتهت ولقد انتظرت حتى النهاية كي تولد. أنت ولد شجاع تحملت الإنتظار. تعال الآن فوالدك ينتظرك.

اسمه يوسف. عندما يدخل قل له: عزيزي يوسف، أنا إيشوع إبنك. سترى كم سيتفاجأ وكم ستتبدل سحنته.

كنت أتكلم وأنا ألهث. لبطة قوية من إيشوع، دفعة من كتفه، فعدت إلى استقامتي وأنا أستند إلى المعلف. كان الحيوانان يجتران بهدوء. كان يسود سكون تام. لقد اختار يوسف مكاناً جيداً لنا.

ـ ضربة موفقة يا إيشوع. ضربة أخرى كهذه وتصير في الخارج. ها أنا أساعدك. لندفع معاً. يداي مستعدتان لتلقفك، هيا.

ها قد لاح الكتف. لقد لمسته. ولكنه عاد إلى الداخل. ثم فجأة اندفع إيشوع وأخرج رأسه. أخذته بين يدي وتحسسته وندت عني شهقة ومع الشهقة خرج كله والتقطته قبل أن يسقط على الأرض. ورفعته إلى الأعلى من قدميه كي تنفتح رئتاه وتفسحا مجالاً للدفقة الأولى من الهواء فتندفع إلى الداخل. بلع إيشوع الهواء دون أن يبكي.

أقوم بحركات صحيحة من دون أن تكون لي خبرة في ذلك. جسدي يقوم بذلك من تلقاء نفسه. إنه يتمرن. لم أتعلمها أنا. أشم المخلوق الكامل الذي أنجبته. الآن أستطيع أن أخفف العبء عن عصب الشك المشدود: إنه ولد. لم يعد ذلك تنبؤاً بل صار حقيقة. إنه ولد، أول ذرية على الأرض من يوسف ومريم. وسيختن الآن في الثامنة. إنه ولد، أنا أجبته سالماً سليماً وسط الماء والدم.

الجسد السليم الذي يبتهج مع جسد كل إمرأة تضع مولوداً على الأرض. إنه هديتنا.

قطعت الحبل بضربة واحدة وعقدته. ثم فركت جسمه بالماء والملح. هو ذا أخيراً. مسدت كل جسمه من قمة رأسه إلى قدميه. شممته وللتأكد لحسته مرة.

ـ أنت في الواقع حبة تمر. أنت ثمرة أكثر من أنك ولد.

وضعت أذني على قلبه. كان يدق بسرعة كدقات قلب شخص أنهكه الجري. نظرت إليه في الضوء الشحيح للنجم. كان مصنوعاً من دمي والكمال. «تشبه يوسف». أردت أن أقول له ذلك. «والدك الذي على ألأرض رجل شجاع، ستشبهه». تمددت تحت غطاء الوبر ووضعته على صدري.

أصدر الثور خواراً ضعيفاً أما الأتان فقد أصمت أذني بنهيقها. كان هذا ترحيباً منهما بقدوم إيشوع، «إبني»، إلى العالم. كنت وعدتهما بأن أنجب ولداً في الفجر وها نحن مازلنا في غمرة الليل. سيبقى إيشوع «إبني» وحدي حتى بزوغ أول ضوء. إنه لي وحدي. أريد أن أردد أغنية مؤلفة من هذه الكلمات الثلاث فقط. هذه الليلة، في بيت لحم، هو لي وحدي. إنه يرضع ويتنفس. يرضع مني ويتنفس الهواء. «ليس ثمة من هو أجمل من طفلي هذا. إستنشاق هواء ليلة قمرية مقدسة يمنحك أرض إسرائيل العائدة لك.

نسغ الأم ـ الشجرة ترتشفه مني. هذا أفضل ما يمكنني أن أمنحك إياه، أرضك وأنا».

في الخارج هناك العالم، الآباء. الشرائع، السجلات التي سيدون فيها إسمك، الختان الذي سيهبك الإنتماء إلى قوم. في الخارج تفوح رائحة النبيذ. في الخارج ينصب الناس خيامهم. هنا في الداخل نحن وحدنا. دفء الحيوانات يغمرنا وسنبقى في أمان حتى طلوع الفجر، عندئذ سيدخلون علينا ولن تبقى لي من بعد ذلك.

ولكن طالما استمر الليل، طالما ظل ضوء نجمة ساهرة يسطع من فوقنا، سنبقى وحدنا في العالم. في وسعنا البقاء من دونهم. حتى من دون والدك يوسف، أفضل الرجال. تصور: نخرج من هنا عند الفجر ولا نجد شيئاً في الخارج. لا مدن، لا كائنات بشرية. تصور: نحن وحدنا في العالم. أية سعادة. بعيداً عن كل إنشغال خارج العيش. سيبقى الأمر هكذا طالما استمر الليل.

تسكن الصحراء، حيث لا أحد بين الأرض والسماء، من دون ظل جدار أو مسكن. تسكن العراء وتتعرف إلى المسافة التي تبعدك عن الناس وتحميك منهم. الصحراء ليست منفى، إنها مسقط رأسك. أنت لست ثمرة إحتضان أو نطفة رجل، بل نتاج نفحة باردة من البشارة. لن يثقوا بك بما أنت عليه. ستتذكر هذه الليلة

حين تحضر مجالسهم ويصغون إليك. وستمد نظرك إلى خارج قصورهم حيث يقيمون المآدب. ستتآلف مع الصحراء التي جعلتني أماً. أنت القادم من هناك، من فراغ السماوات، سليل شهاب حطّ عند قدمي. ليس الإحصاء هو ما دعانا إلى السير بل حياة موعودة هناك في الأعالي. هذه الليلة أدركت الأمر، غداً سأنسى ذلك.

نمت قليلاً خلال تلك الأشهر. في الليالي كنت أسهر وأنا أراقب قوافل النجوم التي يسميها الحكماء أبراجاً. هذه الليلة يستمر سهري، ولكنه أجمل السهرات لأن في مقدوري أن آخذك في حضني. لقد أحسنت عملاً إذ أتيت في الليل، بعيداً عن أعين الناس وضوء النهار. ما ستراه غداً ومن بعده هو عكس الآن، عكس هذه الليلة. هذه الليلة هي وقت التآلف مع الصحراء التي هي والدك.

كيف حصل أنك لم تبك؟ أنك لا تبكي؟ ألا تستطيع؟ أم أنك ربما أخرس؟ سيكون ذلك أفضل. ستكون في مأمن. لأن للكلام نتائج خطيرة. فهو يؤدي إلى السجن أو النفي أو ما هو أسوأ. الكلمات مصنوعة من الهواء ولكنها ثقيلة. أترى كيف تمضي أنفاس الأتان والثور، الذي نحن في ضيافته، سريعة وقوية؟ وأنفاسنا؟ أترى؟ نفحة وتنقضي.

ليس هذا حال الكلام. هناك ثقل. كلمات البشارة هي التي حملتك إلي. كلمات النبي هي التي تصنع المستقبل. ولكن ماذا لو

كنت أخرس أو أصابك الذهول بعد خروجك من بطني؟ أنا كنت خرساء أمام الملاك، كنت مذهولة. أما أنت، ابن نفحات الكلام، وأنت في حضني، ستكون وعاء للكلمات. ستكون مختلفاً، من دون مبالغة في الإختلاف، مثل إختلاف ندفة ثلج عن أخرى. يكفي أن انتهى الأمر بنا منبوذين: رأي في فقرة من الشرع. في الحب. مثل يوسفنا الذي إختير من بين كل الناس كي يحرسنا. أنت منذ الآن مختلف، ولم تمض بعد ساعة على ولادتك.

ولكنه أمر مخيف يا ولدي أنك لا تبكي.

أصوات الرعاة تعلن قدوم الفجر. في الخارج هناك مدينة تسمى بيت لحم. أنت ولدت هنا، في فرن. عجنت في بطني من دون خميرة رجل. ألمسك وأشم رائحة الخبز فيك. خبز العيد الذي نحمله إلى المعبد كقربان.

قربان؟ ماذا أقول، يا سيدي، ماذا أقول؟ قربان؟ ولكن من أجل ماذا؟ لماذا تولد هنا بالذات في بيت الخبز(*)؟ ولماذا يتعين علينا أن نسميك إيشوع؟ بم تلفظت؟ خبز؟ قربان؟ لا أبداً. لست خبزاً. أنت أحد الأشقياء الذين يقتحمون العالم. أحد الذين لا حصر لهم ممن يغزون وجه الأرض. لست استثناءً. أنت ولد عبري عادي

(*) بيت لحم بالعبرية تعني بيت الخبز. ملاحظة المترجم.

من دون علامات مميزة وليس ثمة شيء تقوم به سوى أن تعيش وتكدح وتتزوج وتحصل على ما يسد الرمق.

يا سيد العالم، أيها المبارك، إصغ إلى صلوات خادمتك، التي هي الآن أم. حين يأتي طفل إلى الوجود تحتفي به العائلة وتتمنى أن يصبح شخصاً ذكياً، متميزاً عن الآخرين. لا تفعل هذا. لا تجعل هذه الرعشة التي تسلقت ظهري، الآتية من المستقبل، تمضي إلى ما هو أبعد. لقد أسميته إيشوع كما طلبت ولكن لا تكلفه بأية رسالة. إجعله ولداً عادياً مثل غيره، بل ربما مع قليل من الغباء والجبن والكسل. ولد من شأنه أن يساعد والده في الحانوت ويتعلم منه المهنة ويواصلها من بعده.

وسنتولى تأمين زوجة له. وسينجب دزينة من الأولاد أحملهم على ركبتي وألعب معهم. يا سيد العالم، أيها المبارك، إجعله شخصاً لامبالياً، لا ينشغل بالسياسة، ينسجم مع الرومان ومع كل من يتولى شؤوننا في أرضنا وبيوتنا.

لم أر الرسول بعد ولم أسمع به. هل هذه إشارة إلى أنك ستتركنا، أنا ويوسف، لحال سبيلنا؟ بالطبع سنهتم بالأمر، ولكن فقط إبعد هذا الولد عن حكايتك، أجعله رجلاً قنوعاً بسيطاً لا يغضب سوى من الذباب.

لا تجعله وسيماً، لا تدعه محط حسد الآخرين. إصغ إلى الصلاة المقلوبة لخادمتك. حمقاء أنا إذا تبجحت بالكمال وبدخولك فيّ من دون نطفة رجل. أنا الحمقاء المتعجرفة إذ أكشف عن وضعي الإستثنائي. لا تجعله مميزاً. إيشوعك هذا إعتبره مشروعاً فاشلاً وتخل عنه. كثيرون يتضرعون إليك أن تتذكرهم أما إيشوع فانسه.

تمر غيمة وتحجب النجمة. أنفاس البهيمتين تعلو بثبات. أقوى من صلاتي. لا يهم. أستمر: إقطع لي عهداً بما يلي. ألا تغريه في سنواته العشرين الأولى مثلما فعلت مع إرميا إذ بشرت به حين كان بعد في بطن أمه. في العشرينات من العمر يتحمس المرء للأفكار ويتشوق للبحث عن الحقيقة والعدالة. لا تجعل هذه المرحلة من عمره وقت دعوته. لا تدعه يفعل ذلك قبل الثلاثين. قبل أن تكتمل رجولته ويتخذ خياراته بعد تأمل. فإن إستمرت إرادتك التي وضعته في بطني سأقدمه لك مثلما فعلت حنة، أم صامويل. تعطيني إياه من عمر ثلاث سنوات وأعيده إليك في الثلاثين.

أعدك بأن أحثه على العمل ولكن ليس وسط الحرب والنزاع. في هذه الليلة في ضوء نجمة عابرة أملك رؤية العميان. ألمس جسد إيشوع وأمسد أصابعه فأراه في حفل زفاف. ليس هو من

يتزوج. نحن مدعوان. هو رجل في الثلاثين من العمر. أسأله شيئاً فينظر إلي ويرتبك ويتردد ثم ينصاع. لا أعرف ماذا سألته ولا ماذا كان رده. في الداخل تستمر الحفلة. أعرف أنني أقدمه إليك في هذا اليوم. لا أقول: فليكن. اقول: ألا يكون قبل هذا. لقد وعدتك فأوعدني. لقد أطعتك فحقق طلبي.

يفتح إيشوع عينيه في كف يدي الذي يسند رأسه. يتوقف عن الرضع. وتستقبل حدقتاه نور الليل الفضي.

أنا متأرجحة بينكما. أهذا هو حال جميع الأمهات، أم أن هذه الليلة هي الليلة الاستثنائية الوحيدة في العالم؟ برفقتك أتعلم الشك في أن أكون أحداً، شخصاً ما، مجهولاً. لكنني متأكدة من أنك تسمعني.

هل أنت نائم؟ نعم. أنت نائم. لا تسمع أمك وهي حانقة من نفسها. وقد أصابها الرعب. نم. تنفس ملء صدرك. إشرع في النمو، ولكن ببطء. عش، ولكن بعيداً عن الأعين. أنا أنتظر ابتسامتك الأولى كي أخفيها فلا تسحر العالم وتفضح أمرك. نم، غداً سترى النور الأول في حياتك وستلمح ظلك الأول على جنبك. نم واحلم أنك ما زلت هناك. أن حياتك مازالت تحمل عنواني. في الحلم تستطيع أن تعود متى ما شئت.

أي فراغ تركته في. أية فسحة بداخلي بحاجة لأن تتعلم كيف تنغلق على نفسها. لقد استردَّ جسمي مركزه. منذ الآن نحن شخصان منفصلان في وسعهما أن يتعانقا. ولكن لن يستطيعا أبداً أن يعودا شخصاً واحداً.

على أرض الإصطبل هناك المشيمة. كيس انتظارنا.

نور النجمة يخبو ويشرع النهار يطلع من الشرق ويطرد الليل. يعدّ الرعيان أغنامهم قبل أن ينشروها في المراعي. يقف يوسف عند الباب. إيشوع، «إبني»، مرحباً بك إلى العالم. إدخل يا يوسف، إنه إبنك الآن.

ثلاثة أناشيد

نشيد الرعاة

أبانا الذي في السموات
إحرس قطيعك كي لا يشرد ويضيع
الخلاص لملكوتك
في السماء كما في الأرض
إمنحنا اليوم مراعي الغد
أخبرنا عن الشاة التائهة
سنقدمها قرباناً لك
ولا تترك مكاناً للأفخاخ
بل أنقذنا من الذئاب
آمين.

نشيد مريم (ماريا)

إبن من هو هذا الولد الطافح نضارةً
يتساءلون وهم يمسّدون وجهه
لمن هذه الذرية المحيّرة
أبوة ابتسامتك؟

إنه لي وحدي، لي وحدي
ليس من أي جسد آخر، هو لي وحدي
لي وحدي، لي وحدي
طالما استمر الليل، لي وحدي

من هو هذا الولد الشهاب؟
من هو سري هذا؟
الذي انبثق من نبع خفي

وتدفق مع النبيذ؟

إنه لي وحدي، لي وحدي
إسمه هذه الليلة هو: لي وحدي،
إنه لي وحدي، لي وحدي
غداً سيكون له اسم آخر
أما الآن فإنه: لي وحدي.

خرساء كنت

يخيفني أنك لا تبكي، يا «إبني»

كيف حدث أنك لم تبك، يا «إبني»

كيف لم تبك؟

هل لأنك لا تستطيع أن تبكي، لا تستطيع أن تتكلم؟

سيكون هذا أفضل. ستكون في أمان.

سيكون أفضل لو كنت أخرس.

إنهم يضفون أهمية كبيرة على الكلمات

ينتهي بها الأمر بأن تؤدي إلى المنفى،

إلى السجن، أو ما هو أسوأ.

ولكن ليس لأنك أخرس

ولا لأنك مذهول من خروجك مني

ليس لأنك أخرس

ولا لأنك متأثر بالعالم من حولك

أنا كنت خرساء أمام الملاك

خرساء كنت

مذهولة أمام الملاك

مبهوتة

إبن نفحة الكلام بالقرب مني

ستكون وعاء للكلمات.

يخيفني أنك لا تبكي، يا «إبني».

احتمال آخر للماضي..

إسكندر حبش

يبدو الكاتب الإيطالي، إري دي لوكا، واحداً من الاستثناءات النادرة والسعيدة لقاعدة «الكتّاب المتعلمين»، المقيدين بفضاء طاولات عملهم الضيق، بكونه عاش دائما تحت شارة «النزوح». نزوح، يبدو سمة لانتماء فاشل أو مرفوض أو حتى مستحيل. لقد وسمت تجربة هذا «المنشق» ـ وفي الوقت عينه ـ حياته وكتاباته، إذ ارتكزت حول ما يمكن لنا أن نسميه «حنيناً فرضياً»، أي أنه حنين لا يمس فقط ما كان عليه الأمر، وإنما ما يمكن له أن يكون عليه؛ بمعنى أن الذاكرة تصبح حينذاك، أكثر من مستودع أرشيف، بل لنقل هي مكان لإبداعات لا تتوقف، تنبثق دوماً من «قلب الكاتب الفرضي» على قول الشاعر البرتغالي فرناندو بيسوا.

«تكمن مهمة الكاتب أيضاً في إعطاء الماضي، احتمالا آخر، ذكاء آخر»، يقول دي لوكا حول قضية استعمال الذاكرة في عمله. ومع

ذلك، فإن سيرته الذاتية(*)، ليست فارغة من الأحداث: النضال مع اليسار المتطرف (جماعة «النضال يستمر»)، السنون العديدة التي قضاها خارج بلاده (في فرنسا وإفريقيا)، اختيار مهنة يدوية (عامل بناء)، تعلّم اللغة العبرية والاقتراب من الكتابة التوراتية، من مصدرها. بيد أن بُعد الانشقاق يكمن في هذا الأمر فقط: «اجتياز كل شيء من دون الرغبة أو القدرة في البقاء في أي مكان محدد».

في مدينة نابولي (حيث ولد العام ١٩٥٠)، كانت أولى تجاربه في الانتماء التي لم يستطع الإمساك بها. ففي هذه المدينة المتفردة بشكل كبير، الموسومة «بهذا المزيج ما بين الورع والقرف، هذا المزيج الخاص الذي تفوح منه رائحة السمك المنزوع الأحشاء وما بين البخور الذي يفوح من على مذابح الكنائس»، يشكل له مسقط رأسه «مصدراً» لم يستطع الانتساب إليه «منذ البداية، وكنت في الثامنة عشرة، شعرت بنفسي مطروداً من نابولي، ومع ذلك، عندما أتذكر ذلك كله، أشعر بامتنان لهذه المدينة، لأنني لم أكن أرغب في أن أكون مطروداً من مدينة أخرى».

طفولة «نابوليتانية» عديمة المعنى إذاً، «صامتة وبدون حنان. صحيح أن والديّ اختارا بعضهما بعضاً، لكنهما لم يقعا في الحب أبداً. كان والدي يحمل دكتوراه في الاقتصاد، ويعمل في مجال

(*) كلام إري دي لوكا المقتبس هنا، في هذه المقدمة، مستلّ من مقابلة أجريتها معه في باريس، ونشرت في صحيفة «السفير» (اللبنانية) بتاريخ ٩/ ٤/ ٢٠٠٢.

تجارة الفواكه والخضار، أما والدتي فتعمل في التجارة بدورها. وكما العديد من العائلات، تعرضا لمثل ما تعرضت له الطبقة البورجوازية من فقر، بسبب الحرب (العالمية الثانية) ومن ثم الاحتلال الأميركي. إذ أن نابولي، التي عاش فيها العديد من الملوك، أصبحت أشبه بمستعمرة، لأن المرفأ، وهو مركز الغنى الرئيسي لنابولي، أصبح قاعدة الحلف الأطلسي في المتوسط».

لم تكن طفولته مليئة بالفضاءات بل اقتصرت على تلك الغرفة، في بيت العائلة، التي ملأها بالكتب. منذ تلك الأيام، «بدأت بالقراءة، قرأت في البداية كل الكتب التي تتحدث عن الحرب العالمية، رسائل المحكومين بالإعدام، قصص الناجين من غرف الغاز»... في هذه الغرفة، بنى «تربيته العاطفية» (فيما لو استعرنا عنوان رواية الكاتب الفرنسي غوستاف فلوبير)، المعادية للفاشية إذ أعطته هذه القراءة «شرعية الصمت الداخلية». من هنا أخذ الكتاب شكل «تلك المادة العازلة ما بيني وما بين المدينة، اكتشفت غينسبرغ، همنغواي، شتاينباك، كامو. وهذا الأخير، وضع الكلمات في فمي، علّمني كيف أعبّر عن عواطفي. فيما بعد، وبشكل متأخر جداً اكتشفت مارغريت يورسنار، إنها تكتب بشكل رائع جداً».

كان والده يرغب في أن يكون ابنه ديبلوماسياً، فأرسله إلى مدينة «غرونوبل» الفرنسية لتعلّم اللغة. بيد أنه كان للكاتب مُثلٌ أخرى، إذ وبعد أن حاز «البكالوريا» العام ١٩٦٨، هرب من المنزل، وسافر بالقطار إلى روما ليشارك في أولى المظاهرات التي كانت تطالب

برحيل الأميركيين عن فيتنام كما برحيل الجنرالات عن اليونان: «وجدت نفسي داخل جيل من المتشردين الذين علموني كيف أفتح فمي. بالنسبة إلينا، كانت الشيوعية هي القاسم المشترك، إبداع طريقة للعيش، تجربة حياة مشتركة. كانت شيوعية لا تنام مطلقاً».

إذاً، وجد دولوقا منزلاً في النضال، بعيداً عن نابولي «كانت هذه المدينة بالنسبة إليّ قضية وسبباً في عدد كبير من ردّات فعلي العصبية، من مشاعري العدوانية. إنها أيضاً السبب في شعوري الدائم بـ(عدم التطبيق)». تبدو كلمة «عدم التطبيق»، كلمة غريبة، إذ تمثل عادة قانون إصلاح أو سيرورة ما. لا يقول الكاتب كلمة أخرى، إذ، عادة، يختارها بنفسه، أي يكون واعياً لكل رنينها الدلالي. «عدم التطبيق»، كلمة مستعارة من مستوى آخر للغة، لكي يصف عبرها، المصير الفردي، في البداية ومن ثم المصير الجماعي.

في واقع الأمر، ومنذ فترة مبكرة، حمل دي لوكا، «عدم التطبيق» هذا، داخل وطن خيالي: وطن أولئك الذين كانوا مثله - أي في الثامنة عشرة في العام ١٩٦٨ - وهذا الوطن الخيالي، سرعان ما أصبح مكاناً آخر لا يُعاش فيه، إذ تشظى هذا الوطن، دفعة واحدة في نهاية السبعينيات، ليدفع بمواطنيه في كلّ الاتجاهات: إلى السجون التي ابتلعت الطوباويين (الذين أصبحوا إرهابيين)، إلى المنفى، أو الذين دفعهم إلى التقاعد باكرا «والذين انهمكوا فيما بعد بالبحث عن نقاط استدلال او ضمانة ما».

كان واحداً من جيل تبدى أنه جيل «عدم التطبيق». جيل عاش

طويلاً داخل العدوانية وفي الابتعاد عن جوازات الأشياء، فيما بعد، لم ينجح في الانخراط بالواقع. هناك استثناءات بالطبع، لكنهم أناس كان باستطاعتهم تبوؤ مراكز ومسؤوليات وسلطة. المهم في نهاية الأمر، أنه جيل «عدم التطبيق»، لذلك: «أحمل في داخلي حزن العديد من الأشخاص الذين قاسموني خياراتي ومسؤولياتي السياسية وهم اليوم إما في السجن وإما مشتتون في المنفى. هنا يكمن شعوري بعدم الانتماء هذا، إذ لطالما استمر هؤلاء في قيادة ذلك الوجود المعلق، الرهين الذين هو نتيجة أعمال متكاملة لطالما شعرت أنني لا أستطيع الإنتماء إلى أي شيء».

من هنا نجد أن حتى الانتماء الرمزي لذاكرة جماعية، تبقى قضية مستحيلة عند دي لوكا، لأن كلّ شيء يبدو وكأنه لا يزال يمرّ تحت شارة «عدم التطبيق» هذا، الذي صوره منذ روايته الأولى «*Non ora, non qui*» (ليس الآن، ليس هنا). جملة مستعارة من الخطاب الأمومي. خطاب مؤسس على السلب المزدوج (ليس.. ليس) الذي هو نتيجة أخيرة لسلبية الواقع ذاته.

في أي حال، نرى في هذه الرواية، أن كلّ تشكل لأي لحظة من لحظات الوجود، تحدث عبر صيغة الشرطية. ففي نهاية الكتاب، نجد «البطل» العجوز، يتخيل لقاء مع والدته في صورة تظهره شاباً بعد بينما هو في طريقه لاجتياز الشارع بالقرب من حافلة نقل. عبر الخيال، ينزلق إلى داخل هذه الحافلة ليثبت مرة

أولى وأخيرة في اللونين الأسود والأبيض. إنه يخترع اللقاء الوحيد الممكن مع والدته، بالأحرى مع الواقع نفسه.

حتى منزل الريف الذي كان سيقع وينهار، حيث تجري أحداث كتاب «Aceto, arcobaleno» («أسيد، قوس قزح»)، يبدو وكأنه المكان الوحيد الممكن للقاءات مستحيلة. في هذا المكان الفرضي، الموجود من دون أن يكون بحاجة إلى ذلك، نجد الشخصية الرئيسة تنغلق على نفسها «وهي تستمع للعالم الذي فاتها». هناك، يزوره ثلاثة أشخاص، إنهم أصدقاء الشباب، وهم في الواقع ثلاثة انعكاسات ذاتية للكاتب. هناك الإرهابي الذي يرى أن السياسة هي تنظيم الغضب وسرعان ما يلاحظ أن غضبه كان قيمة لا تطبق، عملة مزيفة. وهناك المبعوث الذي نهشته إفريقيا روحياً وجسدياً والذي يعود إلى وطنه أخيراً كي يموت فيه. أما الشخصية الثالثة، فكانت آمنت بإمكانية عيش حياة منزوعة عن كل فضاء وعن كل قاعدة، أي حياة حرة، لكنه سرعان ما اكتشف خطأ ذلك.

وبما أنّ كلّ دروب الانتماء غير موجودة، لم يعد أمام الوعي الذي يضعه الكاتب فوق خشبة الأحداث، وهو «أنا» وجدانية لا «أنا» روائية إلا أنه يستدير صوب الأفق الافتراضي لأصول مخترعة، أي لا العودة للجذور، الشخصية أو الاجتماعية أو حتى التاريخية، وإنما البحث عن جذور أسطورية مثلما يحدث في بعض القبائل، حيث يبدعون جدودا أسطوريين.

بالنسبة إلى دي لوكا، أصبح هذا الأصل الأسطوري يكمن في

النص العبراني للكتابة، أي عبر الرنين والإيقاع. نلاحظ مثلاً في كتبه، انبعاث بعض الرؤى الوجدانية لبعض مقاطع التوراة، حتى في الإنشداد نحو الشفاهية، «أي نحو الكتابة التي تصبح صوتاً». من هنا تصبح اللغة التوراتية للكاتب ذات قيمة «أمومية» أي «الهمّ بكتابة لغة أصلية تصيب ماهية النص التوراتي». لقد حاول دي لوكا أن يتخلص من كل الطبقات التفسيرية، التي على مرّ العصور، رزحت فوق النص، كما حاول التخلص من كل إرجاع للرؤية الرسمية. ومع ذلك، فإن هذا البحث لم ينجح في جعله «منتمياً»، أي لم «يتهوّد»، لأنه وضع نفسه بعيداً عن كل ارتباط تاريخي وأيديولوجي بـ «إسرائيل». فالكتابة التوراتية بالنسبة إليه هي كتابة «ما فوق الزمن.. لا يحمل التوراة أي راهنية، إنه بالنسبة إلي، ذلك الخارج. من هنا علينا الذهاب إليه لكي نفهمه لا أن نبحث عن جعله متطابقاً مع الموديلات الغريبة عنه. إنه كنز أدبي أو روحي، بعيداً عن كل استعمال حربي نحيله إليه».

من هذا المنطلق علينا أن نفهم روايته السردية القصيرة هذه «باسم الأم» (In nome della madre)، الذي يقترح فيها إعادة كتابة، على طريقته وبأسلوبه، لقصة ميلاد المسيح لكن من خلال توقفه بالدرجة الأولى على صورة مريم وحضورها.

أولى الانطباعات التي تخرج منها بعد قراءة هذا الكتاب أنه من أكثر كتب دي لوكا التي تنحو الكتاب نحو «لُغزية» ما، على الرغم من أنها تشبه تلك الحكايات التي تُروى في موسم أعياد الميلاد. إذ

يروي ـ ومن دون أي خفر غاش ـ «قصة البشارة»، أي قصة الملاك الذي ظهر على مريم، والحلّ الذي اضطلع به يوسف لحماية خطيبته والهروب من الناصرة إلى بيت لحم حيث وضعت هناك في مزود، آلام المخاض التي شعرت بها، تنفسها الذي كان يتوه في الفضاء... وإذا ما كانت هذه الأمور من الأشياء المعروفة بحسب ما وردت في «الكتاب المقدس»، إلا أنّ الكاتب الإيطالي يحاول أن يتخيل ويضيف ـ وفق ما يقتضيه سرده الأدبي ـ بعض الجُمل والعبارات التي تقولها مريم مثل أن نجدها تقول: «أظهر نفسك أيها الصغير، تعال إليّ، مستعدة أمك لأن تمسك بك سريعاً ما إن تُخرج رأسك الصغير».

ربما كان دي لوكا يدافع عن نفسه حين يخترع هذه الجمل. أقصد أنه لكثرة ما قرأ الأناجيل والتوراة ـ (إذ يحفظهما غيباً، مثلما هو معروف عنه) ـ يحاول أن يعير صوته إلى هذه «الفتاة الشابة». من هنا تبدو مريم وكأنها تلك «الأم الشجاعة» (فيما لو استعرنا عنواناً لبريشت)، تلك «المتمردة» التي تجرؤ على تحدي القوانين الإنسانية ـ إذ كانت حاملاً وغير متزوجة، ما قد يفضي إلى رجمها ـ ومواجهة الأفكار والأحاسيس السائدة كما مصير ابنها يسوع، الذي هو وفق الرواية الإلهية، يحمل روح الخالق.

كتاب «باسم الأم» حكاية غير متوقعة، مليئة «بالسحر»، ولا تشذّ كثيراً عن مستوى كتبه الأخرى، أي عن ذلك الأدب المدهش

الذي وجدناه في كتب من مثل «ثلاثة جياد» أو «جبل الرب»(*).

وما يعطي الكتاب تفرده، هذه المسحة الشخصية التي يضيفها الكاتب على «الرواية الرسمية» التي يبقى مخلصاً لها من البداية إلى النهاية، أي ليس هدفه تغيير وتبديل ما توارثناه بل محاولة الدخول أكثر إلى عمق النص، ليفتح من خلاله بعض التأويلات، كأن نجد مثلا ذلك البيت الشعري للشاعر الروسي يوسف برودسكي الذي كتبه بعد ألفي سنة من تلك الحادثة، ويقول فيه: «لتعتد، أيها الصبي، على الصحراء».

بالتأكيد تأخذ الصحراء هنا، معنييها المختلفين، من حيث هي مكان، كما من حيث هي مجاز لحالة وفضاء ومناخ. هنا يكمن كل «تناقض» الكاتب، إذ تأتي كل صفحة كتبها هذا الشخص «غير المؤمن» لتبدو بمثابة «صلاة» ما.

«باسم الأم»، ربما هو محاولة لتجسيد فكرة قديمة عند الكاتب الذي يجد أن «مهمة الكاتب أيضاً أن يعطي للماضي إمكانية أخرى، ذكاء آخر»، هي أيضا محاولة «لتأنيث» قصة الألوهة، إذ جاز القول، بمعنى إيجاد صيغة مقابلة لما يقال في المسيحية «باسم الأب»، لذلك يفترق كتابه بالتأكيد عمّا يسميه النقاد في إيطاليا «الكيتش الثيولوجي».

(*) «بكم التاريخ»، ملحق للترجمة العربية لرواية «جبل الرب»، صدرتا بترجمة عربية لنزار آغري، عن «منشورات الجمل».

الفهرس

هذا الكتاب

بقيت واقفة أمامه كما كنت وقفت من قبل أمام يوسف. وهو كان يجلس ثم ينهض ثم يجلس ثانية ويطلب مني أن أجلس. غير أني بقيت واقفة. كنا مخطوبين وحسب وكان من السابق لأوانه أن نجلس لوحدنا تحت سقف واحد. كنت طلبت اللقاء معه وقد تمت الإستجابة لطلبي. ولكن كان ثمة لغط كبير وكان المساء قد حل.

شبكت يديّ حول بطني ورحت ألعب بالشعر وأدرك من خلال أصابعي أن حياتي كلها قد تبدلت. كان الأمر بالنسبة لي بمثابة اليوم الأول للخليقة.

ISBN 978-9933351564

9 789933 351564

مكتبة الفكر الجديد